دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دمشق القديمة بدون أبواب: الفصل الأخير من تدمير الذاكرة المعمارية
المصدر:	مجلة ثقافات
الناشر:	جامعة البحرين - كلية الآداب
المؤلف الرئيسي:	عرابي، أسعد
المجلد/العدد:	ع 13
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الصفحات:	157 - 160
رقم MD:	438479
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الأبواب الخشبية، دمشق القديمة، سوريا، المدن والقرى، الفن المعماري القديم، بوابات دمشق القديمة، بوابات الأحياء السكنية، حفظ وصيانة التراث
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/438479

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:45 AM Page 157

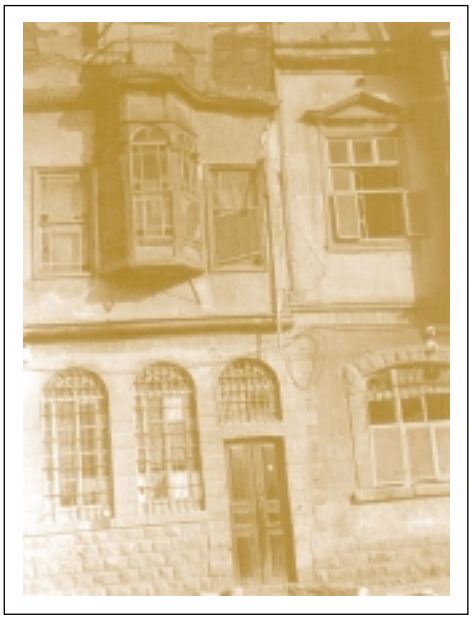

دمشق القديمة بدون أبواب

الفصل الأخير من تدمير الذاكرة المعماريّة

أسعد عرابي *

يعتصر الألم قلب محبي دمشق القديمة لما آل إليه مصير أغلب أبواب حاراتها العريقة. هي التي اختفى أعظمها منذ ما يقارب من السنتين، ثم تسارع إيقاع هذه الظاهرة فتفشّت بآلية مريبة. تحوم إشارات الاستفهام حول براءتها والتباس دور من يقع خلف تسويقها.

والمشكلة السرطانيّة تتمثّل في شيوع استبدال الأبواب الخشبية العريقة والرهيفة الصناعة بأخرى حديثة مصنّعة بطريقة عشوائية من الصفائح المعدنية المبتذلة، سيطرت هذه الظاهرة المريبة على أغلب بيوتات الأحياء التي قصفها التحديث «الأيكوشاري» المشبوه في الستينات.

وإثر الإدعاء الرسمي بحماية ما بعد السور، أوقف الهدم بضغط اليونسكو وسواها وظل ما بقي (خاصة مابين حي العيبة وسوقساروجه) في حالة متهافتة من التداعي بانتظار أن تسقط لوحدها أو تتحول إلى خطر عام فيعاد تشريع هدمها بالتحالف مع تجار العمارات البرجية هو ما حصل فعلاً بالقرب من مساحة المرجة ومشتقاتها.

لنتصّور مجتمع محاك بأساطير زكريا تامر وتيسير السعدي وحسيب كيالي، يستيقظ ذات يوم فيفاجأ بختم أبواب المدينة بالصدأ المعدني الغثياني، ممهوراً بزخرفة إشارة «الضرب» بما تثيره رمزيتها من محق ذوقي، ونفي وطمس وإلغاء مابقي من الذاكرة المعمارية.

هو ما أصاب سابقاً سبل السقاية العريقة، «لمياة

* فنان تشكيلي وباحث في علم الجمال من سوريا.

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:45 AM Page 158

الفيجة» وأضرحة الأولياء ودكاكين العطارين والخطاطين وسواهم من صناعات المدينة. هكذا اختفت من مداخل حي سوق ساروجة ومعبر مواقع حارة الورد، ومحيط حمام الأرماني وصولاً حتى الميدان عبوراً بعين الكرش وشارفت القيمرية وباب توما متجاوزة «سور» مديرية الآثار الوهمي.

يحضرني رمزياً ما جرى في مجتمع مسرحية «وحيد القرن» ليونسكو: يستيقظ الجمع ذات صباح فيبغاتهم وجود حيوان «وحيد القرن». ثم يصابوا بعدوى قرونه، فتنبت تدريجياً من جباههم واحد إثر الآخر ولا تغلق الستارة إلا على بطل المسرحية وهو يقاوم قرن جبينه. إنه نفس الوزير الذي رفض أن يشرب من ماء «نهر الجنون» لتوفيق الحكيم، شرب منها الشعب وملكه واتهموا الوزير بالجنون ففضل الرحيل والتنازل عن الشراكة في الجنون الجمعي والخروج من منصبه.

ذلك أن أصبع الإدانة لا تتجه فقط إلى «مافيا» تهريب هذه الأبواب وإنما أيضاً إلى «مجتمع الجنون» الذي لا تعترض فيه الزوجة أو الجار أو الوالدة أو الأقرباء على مثل هذه التنازلات. اذا كنا نجد بعض العذر للساكن الوافد من آفاق ريفية أو بدوية (بحكم التّهجير والهجرة الفوضوية) على تواضع التصاقه بالمكان. فإننا لن نجد أي عذر لمواطن يحمل ذاكرة هذه الأبواب نفسها، يتخلى عنها كما تتخلّى السلحفاة عن درعها بما يحمله الاثنان من بعد وقائي روحي يجعل من الباب صفة للمحراب أيضاً.

بعض من هذه الأبواب خارجي رئيسي، وبعضها داخلي تجمعهم الصناعة الزاهية التي تجعل من شرائح خشب الزيتون نحتاً وحفراً ملوناً بالطريقة المعروفةً «بالعجمي»، والمدرّعة بترصيعات معدنية، والمجهّزة بمطارق وأقفال ومزاليج غاية في الرهافة. قد يُعلق عليها نقل حصان «وشبة» «وخرزة زرقاء» تعويذة. كما كانت هناك أبواب سرية تقود إلى أنفاق للهروب، لما عانت المدينة من اجتياحات. يظل الباب رمزاً روحياً في طرزه. كتبت عن نماذجه عشرات الأطروحات الجامعية ووصلت نماذجه الأندلس بالكتابات الشطحية مثل: «يا مفتحّ الأبواب إفتح لنا خير الباب» أو : «والغبطة مستمرة» بعضها كان يفتح آلياً مع ارتفاع حرارة الشمس. عندما مرت سنابك «تيمور لنك» لم تسرق الأبواب، وإنما سرقت صنّاعها من مثال أحمد بن عربش، لينتقل طرازها إلى سمرقند، يكتب ابن خلدون في ذلك الوقت في مقدمته «أول مايفسد في المدينة بعد الموسيقى العمران».

ليس من الصعب تقفّي مصائر هذه الأبواب، هي معروضة بصورة مفضوحة في بعض دكاكين ومخازن نجاري السياحة وبالذات في حي «مونو» في بيروت، نعثر على نماذجها في العديد من ديكورات «باراته» ودور اللهو ونواديه الليلية، (زُيّنت إحدى المداخل ببوابة حي كاملة)، مخازن متخمة بعشرات من الطرز المعروضة للبيع بما فيها المزيّفة بشمسيات الزجاج

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:45 AM Page 159

المعشّق، أما المستودعات فتحفظ الآلاف، لذلك فإن أغلى سعر فيها لا يتجاوز الألف دولار للسواح، وهذا يعني ان المالك تخلى عنها مقابل مبلغ زهيد لا يتجاوز المئة دولار أي خمسة آلاف ليرة سورية، (يؤكد التاجر أنها صناعة يهودية!). تعكس حركة تجارة هذه الأبواب بين دمشق وبيروت نوعاً من النشيط السياحي المشترك والحر، والذي لا يعنيه سوى الكسب المادي.

لاشك في أن استباحة العمارة الذاكراتيّة ترسّخت بسياسة تسويحه، أي تسويح الثقافة أو ثقافة التسوّح. فقد تحولت أغلب الدور المعمارية في دمشق القديمة (التي نجت بمعجزة من «بلدوزر» التحديث والتداعي) إلى مطاعم وفنادق ومواقع لهو ومطابخ ومقاه ومنتجعات.

العبور من البوابات الثلاثة:

حتى ندرك عظم التراكم الروحي الجمعي في صورة «الباب»، ينبغي علينا أن نراجع الخصائص التنظيمية لمدينة دمشق: مدينة العبور والمبادلات والاجتياحات العسكرية بسبب موقعها المتوسّط على طريق الغزوات والقوافل. هو ماتكشفه طبقات الترميم في سورها المزدوج العريق والمخندق بمجرى ماء نهر بردى، والمرصع بالأبراج الدفاعية الدائرية الشكل. لعلّ أبرز ما فيها بواباتها الضخمة المزدوجة.

هي التي تضرب نطاقاً من الحماية الدفاعيّة حول النّسيج الحضري، لا تفُتح للغريب إلا من خلال مزالجها العملاقة، خاصة وأن العديد من المقابر والصناعات الملوثة (مثل الدباغة) تُطرد خارج السور، مثلها مثل قوافل المبادلات، والمنتجات البدوية، تحطّ رحالها خارج السور، هو المفتوح بعدد من البوابات المعدنية العملاقة التي تعكس أسماءها الخطط الكبرى، والتقسيم «الديموغرافي» للأحياء والملل والطوائف وأنواع الصناعات. «فباب شرق» مثلاً كان دوماً معقلاً للسوريان اليعاقبة. هي سبعة أبواب، ولكن يقول أحد الشعراء القدامى في العصر الإسلامي:

«دمشق في أوصافها جنّة خلد راضية
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية»

هو مايشير الى زيادة أحد الأبواب في العهود الإسلامية ثم أُضيف آخر، وهما «باب السلامة» و«باب الفرج» وذلك لأن ابن عساكر يؤكد «سباعية» عددها الرمزي، الموروث منذ العهد الآرامي (في الألف الثاني قبل الميلاد). والذي تراكم ارتباطه بالكواكب السبعة عبر العهود الهلنستيّة (اليونانية والرومانية والبيزنطية) بعد الآشورية والمدانية والفارسية، وصولاً حتى النبطية التدمرية، وذلك كما يلي:

١- باب كيسان (زحل) ٢- باب شرقي (الشمس) ٣- باب توما (الزهرة) ٤- باب الصغيرة (المشتري) ٥- باب الجابية (المريخ) ٦- باب الفراديس (عطارد) ٧- باب الجينيق (القمر).

في عام الفتح الإسلامي ٦٣٦م دخل خالد بن الوليد من باب شرقي، وعمرو بن العاص من باب توما وأبو عبيدة الجراح من باب الجابية، ويزيد بن سفيان من باب كيسان، وهكذا فلكل بوابة تاريخها الدمشقي الخاص من مغوليّة وتيمورية إلى صليبية وأيوبيّة أو

Thaqafat Ar. Side 4/4/05 9:45 AM Page 160

مملوكيّة وصولاً حتى العثمانية. وقد اعتلت الأبنية السكنيّة العشوائية اليوم بعضاً من أبراجها وبواباتها المزدوجة.

يضّطر الغريب أن يعبر من محطّة تمتّع وصدّ ثانية، هي البوابات المزدوجة الخاصة «بالخطط» (الأحياء السكنيّة). كانت تشكّل كل وحدة منها نسيجاً مستقلاً، خاصة في نظامها الأمني. توصد عند اقتراب المساء في الخامسة عصراً فيهدأ كل شيء، وتنام الدنيا حتى صلاة الفجر، فيبدأ الإبكار بالسعي في كسب الرزق والمعاش اليومي. من أشهر هذه البوابات (التي تناولت بعضها مخالب الاندثار):

«الآغا والخواصين والسريجة ومصلّى والهوى والآس وزقاق البرغل والشويكه وبوابة الصالحية وعين الكرش وساروجه». ناهيك عن العمارة البنائّية المتاهيّة التي تجعل للزقاق مدخلاً صريحاً دون استكشاف المخرج بالسهولة نفسها. هو ما يفسّر اقتلاع بعض الأحياء بكاملها أحياناً بهدف الطمأنينة الأمنية. وذلك منذ سّينات اختفاء «حي البحصة» الخاص بالخطاطين وانتهاء بثمانينات رفع دكاكين حي الوراقين (المسكية). مروراً بسوق الهال الشعبي للخضار والفواكه والتشويه الدائم للحمامات والخانات والأضرحة والسبل وسواها.

يمثّل «باب الدار» الخارجي إذن المحطّة الثالثة في هذا العبور البرزخي المتدرج، غالباً ما يتضاعف بباب ثان خلفي أخفض ارتفاعا حتى يحّي الزائر هامته قبل انقياده في دهليز طويل إلى بواطن فراديس الباحة والقرداعة والفسقيّة والإيوان، وأشجار الليمون واللّباد وسواها.

إذا فقدنا (أوكدنا) هذه الأبواب اليوم - فنحن بانتظار اختفاء البوابات الأكبر، لم لا؟ فنحن من أشّد الشعوب ندباً ونواحاً على التراث، ومن أشدهم كرماً وتسامحاً سياحياً في التفريط به.■

مراجع وإحالات

Brigid keenan, Damascus, 2000 safingest internatiional S A.
Marwan Musselmani, “Les maisons daumascènes” 18-19 siecles, Ed. Zouhair Wafa.

الشام الجديدة: صلاح الدين محمد ١٩٩٦ - دمشق.
أبواب دمشق: د. قتيبة الشهابي. دمشق ١٩٩٦م، وزارة الثقافة.
دمشق الشام: د. عفيف البهنسي - المكتبة العمومية - دمشق دار الجنوب، تونس ١٩٨١.
تاريخ دمشق: ابن عساكر - تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٥١ ، دمشق.
خطط الشام: د. محمد كرد علي ، دمشق ١٩٧٨.
عدة دراسات ميدانية منشورة للمؤلف حول «البيت العربي وتدمير المدن».
المقدمة: ابن خلدون.